الصليب فوق الضريح

للاديب حلمي مصري احد تلامذة مدرستنا الكلية

. . . . . .

وغبَّ ان توارى قرص الجونة وراء حضاب المغرب خرج من قصره شابٌّ متشحٌ بالحداد قريح الفؤاد يُستشفُّ من سحنته اثر الحزن القادح والوَجْد القادح فسرى كآبته متبيِّناً ضريحًا ثوى به قلبهُ على مقربة من عين اصفى من الدمعة وهو ينشد:

اتيتُ كآبتي والشوق نامٍ اقوم بذمَّتي والدمع طامٍ
اتيتُ اليك يرشدني هيامي ويترفي الجناح من الظلامِ
وقصدي ثمَّ إهداء السلامَ

ثمَّ الى عصا التسيار بعد ان قطع مسافة نصف ساعة عند قبر من الرخام عليه تاريخ فقيدهِ حفَّت بهِ حلقة من الآس والرياحين وظلَّلتهُ شجرة الخلاف باغصانها المتسدلة فوقهُ. وجلس في مكانهِ المعتاد واسند رأسهُ على مقدَّم الرمس كأنهُ يريد مناجاة دفين القبر وظلَّ هكذا هنيهةً واجمًا تحرقهُ الزفرات وتخنقهُ العبرات ويتصاعد بين هذه وتلك انين الشَّجو والألم:

اتيتُك يا صديقُ على انفرادٍ لاني منك أحظى بالمرادِ
فقُمْ حتَّى مَ تبقى في رقادٍ. وقد كحَّلتَ جفني بالسهادِ
فهبني منك لحظٌ بابتسامٍ

اتيتُك راغبًا في ان أراكا فقُم لأليف ودٍّ قد اتاكا
وعفِّر غضَّ خدِّهِ في ثراكا وقبِّلهُ ثلاثًا في هواكا
وناح كنوح ورقاء الحمامِ

ثمَّ رفع عقيرتهُ والدموع تترقرق من شؤونهِ فقال:

ومن عجبي اشتكيتُ من الفراقِ وشخصٌ واحدٌ منَّ التلاقي

لئن اصبحتَ طيَّ اللحد باقي وملتَ الى الافول بلا لحاقي
فشخصك في الفؤاد مدى الدوام

واذ ذاك كان الاديم صافيًا والنسيم مصافيًا وزُهر النجوم تتلألأ في بساط السماء الازرق. فالسكون سائد في هذه الانحاء لا يطرق السمع الّا خرير الغدير المجاور وحفيفٌ خفيف يتجدَّد عند مصانعة الاوراق بعضها لبعض كلّما جرَّ النسيم العاطر ذيلهُ مع عندلة المزار يسبح ليلًا على الغصن الزاهر خالق هذا الكون العجيب الباهر فانشأ يقول:

خريرُك يا غدير هو الذبيرُ فقد تسري الحياة كما تسيرُ
تهبُّ صفتي الحياة فما المصيرُ اما مرمى الانام هي القبورُ
اما سير العباد الى الحمام

كفانكَ تيس يا غصن المقائلْ فطرفي عنك في ذا اليوم غافلْ
فطورًا انت بالازهار رافلْ عليك الطير يشدو وهو جاذلْ
ولكن طير قلبي ظلَّ صامي

وانتَ هزارَ حندسة الظلام رُويدكَ صوتُ صدحك كالحمام
فصهَ اني بغير هواكَ دامي الست ترى دموعي في انسجام
وقلبي في غشاء من سهام

ثم اطرق قليلًا وانبعث في انشاده:

سُدًى ترهين يا دنيا لاني رويتُ من الشجون وكلّ حزن
فليست آلتي مما يُغنّي بكلّ ترنُّم وبكلّ لحن
وصوتي صوت نوح لا غرام

كأني قد خُلقتُ لكي اقاسي نكالاً حار فيهِ كلُّ آسي
لقد طفحت من الاحزان كاسي وصرتُ بلا انيس او مواسي
لذا الدنيا بعيني كالظلام

فما فيها يصير الى الزوال ويمسي موطئًا تحتَ النعال
وقد يندو رخيصًا كلُّ غالي وبعد اليسر قد تأتي الليالي
فهل من مسعف من ذا الغرام

يذرّ على الملا ملك الضياء ويشملهُ بثوب من بهاء
فيحكي الطفل نورهُ في الضحاء وتصف السمر في كبد السماء
ومغربهُ نذير الانصرام

ونجم في بساط الافق سائرْ أراهُ وطرفهُ حامٍ وساهرْ

ونورهُ في الدجى زاهٍ وزاهرْ هوى فوهَت بهِ كلُّ البصائرْ
فيا اسفي على بدر التمامِ . . .

وبينا كان يتلحن بهذا الشطر الاخير اذ شعرت عينهُ بنورٍ ضئيل فانذعر لُبُّهُ وسكت بغتةً ورجع الى نفسهِ فرأى ان شعاع القمر خرق ارواق الاغصان التي كانت تظلّلهُ فاضاء بصرهُ واثار الصليب الذي كان قائمًا على ذروة الجدث فرسم لهُ ظلًا كاملًا نصب عينيهِ

حينئذٍ التفت ذات اليمين واليسار خشية من عين الرقيب ثم اطرق رويدًا متأمّلًا في هذا المشهد العجيب ورفع عقيرتهُ يخاطب القمر:

أجئتَ تزورني في حال همّي وتقشع ستر دَجن كاد يحمي
ألا دَعني اموت صريع سهمٍ اصاب حشاشتي وسرى بعظمي
فضاق بفسحة الدنيا مقامي

أجئتَ من العلاء لحلّ أسري وتبعثُ لي شعاعًا فيهِ يسري
وهل وافيت تكشف ستر امري وتكفيني الظلام فيا لسرّي
ايا وفدَ السماء أصدق كلامي

وكان فتانا يشخص الى القمر المشرق عليهِ بنورٍ كَيد كأنهُ يناجيهِ ويسائلهُ ثمَّ حوّل نظرهُ الى شبح الصليب الذي فوق الضريح فشعر ان قلبهُ يستعذب هذا المنظر لما يجد أعماده فيهِ من السلوان فيهت بهِ

وظلَّ طرفهُ محدّقًا اليهِ وفكرهُ جائلًا فيهِ حتى تبدّد عن بصيرتهِ غيهب الحزن الغضي فبرقت اسرّتهُ وجفَّ مدمعهُ الساكب وضاء وجههُ الشاحب وعاد الى سابق نضارتهِ. فقال:

صليب مليكنا ربِّ الجلالِ صليب النور يا ملجا الموالي
اليك اتوبُ من قبح الفعالِ وارجو ان ترقَّ لسوء حالي
فبالأرزاء قلبي صار دامي

اراك هنا فاذا انت فاعلْ اقرس ذا الضريح عن النوازلْ
اتكب فوقهُ الاحسان وابلْ وكلٌّ عنهُ في اللذات غافلْ
أتفعل كل ذا لهوى الانامِ

أجَل اني ارى إنّ انت حاضرْ. فليس لغير قصدٍ انت ساعرْ
تسائل رحمةً من كلّ سائرْ لمن فيهِ وتجلب كلّ فائرْ

لهذا جلوك فوق القبر ساعي

فانتَ هنا تجيب المستجيبا اذا ما جاء يفتقد الضريحا
فيا ربي استمع قلباً جريحا اليك قد ساء جسماً وروحا
لتنفر ما اقترفتهُ من ملام

أأهلَ مودّتي خلّوا شجانا تمالَوا واقصدوا هذا المكانا
وصلّوا للفقيد معي «ابانا» فانَّ يسوع تعزية الحزانى
وحيّوهُ بآيات السلام

الصابئة او المندائية

بقلم الاب الفاضل والباحث المدقق انستاس الكرملي البغدادي
(تابع لما سبق)

(كتبهم الدينية)

يدّعي المندائيّة ان لهم كتباً كثيرة مُنزلة تكاد لا تُحصى على ما يقولونهُ غير ان النوائب التي انتابتهم والرزايا التي حلّت بهم وكادت تستأصل شأفتهم لم تُبقِ عندهم الّا غَيْضاً من فَيْض او قيضاً من بَيْض اي ما لا يتجاوز عدُّهُ الاربعين كتاباً. امّا الوقوف على هذه الاسفار فيكاد يكون من رابع المستحيلات فانهم يحرصون عليها ولا حرصهم على حياتهم وعرضهم وقناهم كلها جمعاء. فكم وكم مَن وارتهُ القبور وقُطعت اعضاؤهُ ودُقّت عنقهُ واُحرق بالنار وهلك غرقاً ضنّاً بما في يديه من الكتب الدينية. هذا وتواريخهم في هذا الصدد تسرد وقائع كثيرة تياناً لما ابداهُ المندائيون من الامتناع وشدّة العزيمة ممّا يذهل العقول. وقد جاء هذه البلاد جماعات من الافرنج من ألمان وفرنسيس وايطاليان وانكليز لمشترى بعض هذه الكتب ودفعوا لكتاب واحدٍ خمسة آلاف فرنك ولكتاب آخر الفين فرجعوا بخفّي حنين. ومهما يكن من الامر فان قلّة هذه المخطوطات في خزائن كتب بلاد الفرنجة مع ما يبذل هؤلاء الاقوام من الاصقر الرنّان ويتكلّفون لاستحصالهِ ما يُريهم الموت الاحمر لا بل وما كان منهُ بسائر الألوان يُصدّق كلامنا ولا يعود يطلب